مناهج المستشرقين في دراستهم لتراثنا العربي
وخاصة الشعر منه

أ.د باقي محمد

مازلت الدراسات الإستشراقية تثير اهتمام الدارسين المعاصرين كما أثارت اهتمام الدارسين القدامى،وهذا لأن ثراءه يزداد يوما بعد يوم أمام تنوع المناهج ،و تعدد الطرائق التحليلية ،وتقاطع المعارف ،وتقارب حقولها،الشيء الذي جعل المهتمين بالدراسات الاستشراقية يقفون على أغوار هذه النصوص و أثارة مجاهلها والدراسات الاستشراقية كما نعرف سواء كانت قديمة أو حديثة فقد قدمت أوجها بالغة الأهمية،ونحن نعرف أن الم ركبات النفسية والاجتماعية هي العوامل التي شاركت في صناعة هذه الدراسات التي لم تظهر إلا في المكتوب :

لقد اهتم المستشرقون الألمان بالدراسات العربية وأعطوها المكانة اللائقة بها ،و هذا نظرا لاهتمامهم بالدراسات العربية و شغفهم بهذه الدراسات.

وكما نعلم أن الاستشراق الألماني لم يكن له أي هدف أو غرض سياسي أو إستعماري و هذا نظرا لكون ألمانيا لم تكن لها مستعمرات في البلدان العربية .

ثم أن الدراسات الاستشراقية الألمانية تطرقت إلى موضوعات التراث العربي بأدبه و شعره و تاريخه و حضارته بشيء من الموضوعية والدقة العلمية المعروفة لديهم و كما أن المستشرقين الألمان كانوا متأخرين في إنجازهم للدراسات العربية ،و ليس كالفرنسيين و الإنجليز الذي ن كانت لهم إطلاع على الدراسات العربية،وهذا نظرا لاهتمامهم باللغة العربية ، ونظرا لعدم الاستعمارهم للبلدان العربية أو نظرا لأمور أخرى اهتموا بها اهتماما بالغا ،ولكن ليس بالموضوعية و الدقة العقلية والروح التحليلية التي اهتم بها الألمان، ونستطيع أن نقول أن تأخر الألمان في دراساتهم الأدبي العربي و تراثه راجع كلك إلى عدم تمكنهم في ناصية اللغة العربية إلا في القرن 18 عشر .

والحق يقال أن الدراسات الألمانية لتراثنا العربي كانت مبنية على الجد و المصداقية في ط رح الأفكار و معالجتها معالجة علمية بحتة إلا القلة القليلة الذين كانوا مدفوعين من جهات أخرى وحاولوا العبث بتراثنا وأدبنا و تزيف الحقائق في دراستهم للشعر الجاهلي و أثاروا بعض القضايا في هذا الشعر كالانتحال و غيرها من الصفات الأخرى.

والإجابة على هذه الإشكالية التي أثارها المستشرقون الألمان تقضي إلى القول أن واقع الشعر الجاهلي كان يتجدد ضمن الرؤية الشفوية بعيده عن المكتوب لأن الشعر المكتوب يختلف اختلافا جذريا عن النص الشفهي لأن للنص الشفهي يمحي أثاره و تذهب خصوصي هنظرا لتراكم الزمن،وتناقل الشعر بين أفواه للنا س،فمنهم من يزيد فيه ،ومن يحرف و عن قص د و غير قصد إلى غير ذلك ممن الأمر و ثم إعادة قراءة هذا الشعر أكثر من مرة،وهذا الذي جعل هذا الشعر يغيب و يفقد مصداقيته من نا حية الإستعاب و التلقي هذه الأمور هي التي جعلت اهتمام المستشرقين الأ لمهن تميل إلى التشكيك في الشعر الجاهلي والنظر إلى ما هو مقروء و متخيل .

و يمكن أن نقول " كان بعض الرواة الذين أصابهم ا الغرور ،لا يعج رون عن الجواب في أية مسألة ،حتى تعوزهم المعرفة من عند أنفسهم ،وقد ينسبون شعرا مجهولا لشاعر معين و قد يضيفون أبيات هنا و يسقطون أبيات هناك ومن بين المستشرقين الكبار الذين عبروا عن آرائهم في الشعر الجاهلي واهتموا به اهتماما كبيرا و خاصة فيهما يخص قضية الانتحال في الشعر الجاهلي نجد العلامة (كارل بروكلمان) كثيرة هي الأسئلة التي أثارها هذا المستشرق [3] فيما يخص الانتحال في الشعر الجاهلي ،وحاول البحث عن إجابتها متكأ على دراسة هذه النصوص الشعر ية بطريقة عقلانية و بروح علمية حسب زعميه و قد قال في هذا "لقد غير الرواة بعض الشعر الجاهلي عمدا و نسبوا بعض لأشعار القديمة إلى شعراء الجاهلية الأولى وقد أثارت هذه الأحكام التي أطلقها هذا المستشرق [1] مدى القبول و الرفض من بعض المفكرين العرب خصوصا أولائك الذين درسوا في الجامعات الغربية مثل طه حسين وغيرهم ممن تشبعوا بالثقافة الغربية .

إن الخيال الشعري الجاهلي أوسع من الحقيقة ،و لا مكان و أكثر من التجسيد و نتيجة تشبعهم بالفكر الغربي عامة والفكر الإستشراقي خاصة و كانوا يؤمنون بفكرة التقاء الشرق بالغرب ،وهي الفكرة التي اعتبروها حجر الزاوية في بنائهم الفكري الجديدة [2]

فهم بهذا تأخروا بالفكر الغربي ووجدوا فيه الحرية التامة في طرحهم لأفكارهم ومعالجتها معالجة منطقية حسب زعمهم وخاصة ما تعلق بالانتحال في الشعر الجاهلي .

ويعدّون المستشرقون الألمان من الأوائل الذي أثاروا قضية الإنتحال في الشعر الجاهلي و التي تركزت بصفة عامة في العصر الحديث و تدعمت بشكل كبير في أبناء هذه الأمة و يمكن أن نذكر بعض المستشرقين الذي مثلوا البذور الأولى لمشروع فكري الذي كان يتحيل الفرصة للظهور شيئا فشيئا ومع مرور الزمن انتقلت هذه الفكرة أي فكرة الانتحال إلى الوجود على شلة من المستشرقين من بينهم (تيود نولدكه) و من بعده (فيلهم الورد) وقد اختلف أرائهم حول هذه المسألة و اتجهت إلى المعقول واللامعقول في فكرنا العربي و خاصة الشعر الجاهلي .

يقول نولد لكه " صحيح أننا لا نستطيع أن نوغل الحكم الدقيق على القصائد العربية والذي يستطيع النقاد العرب ،بل سيكون حالتها أقل مما يستطيع فرنسي و إنجليزي من الحكم الصادق على الشعر الألماني مثلا ذلك لأن ذلك يحتاج إلى معرفة بدقائق اللغة العربية والاستعمال الشعري ،لا يستطيع اكتسابها أي أجنبي و ما أبعدنا عن إدراك أدق الفروق في الاستعمال اللغوي القديم "[3].

ثم نجد أن (تيدورنولدكه) هو أول من أستند في دراستهم الشعر الجاهلي و خاصة الانت حال إلى معطيات و مرتكزات تعقب فيها طريق (العقل) في إثبات مشروعه الفكري المتعلق بالشعر الجاهلي ،وذلك لأنه اعتقد أن رجحان العقل في كثير من الأحيان هو الذي يؤدي به إلى الطريق الصواب في تحليله لهذه المعطيات الفكرية ،حيث تأكد في دراسته في الشعر الجاهلي على معطيات كثيرة من بينها النصوص العربية و كان من بين هذه المعطيات والمرتكزات كتاب(طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي) [4] وإذا نظرنا نظرة قواعدية إلى المسألة التي ارتكز عليها المستشرقون في دراستهم للشعر الجاهلي و التشكيك في

صحته و رواية الشعر والتي تعد الركيزة الأساسية في تناولهم لهذا الشعر والتدقيق فيه بتحليل علمي حسب رأيهم فأثار هذا التحول السريع و هذا ال زخم المعرفي الكبير لهذه الروايات بمختلف أطباقها و مجالاتها القدوة في حكم على الشعر الجاهلي بالإنتحال و غيره من الأمور الأخرى الذين وجدوا فيها ظالتهم "ومهما يكن من قوة الذاكرات لا تستطيع أن تحول دون حدوث تغيرات تدريجية قوية في ما تحفظ [5] ".

ولكن الحقيقة التي يجب أن نؤكد عليها أن المستشرقين كما هو مع النص العربي ،واختلفوا من نص للآخر في التعامل مع هذه النصوص المختلفة،وعوض أن يعتمد هؤلاء المستشرقين على علماء اللغة العربية و الذين في الحقيقة من أعلم الأ مم بلغتهم لأنها لغتهم الأصلية و هم أقدر الناس علما بلغتهم،ويتحكمون في ناصيتها و إن المستشرقين"أدركوا الفروق الدقيقة بين لغة العصر الجاهلي و لغة العصر الإسلامي،ويتضح من إشارات عديدة أنهم همالذين كانوا قادرين على ذلك "[6].

إذا تتبعنا المنهج العلمي للمستشرقين في تقييمهم للشعر الجاهلي نجدهم اتبعوا منهج الشك في دراستهم لتراثنا العربي وخاصة الشعر الجاهلي منه ،ثم تعاملوا مع هذه النصوص الجاهلية مستخدمين الشك عبر منهجهم العلمي ،أملين من وراء ذلك أن يضيفوا أمور كثيرة لتراتنا العربي و هذا حسب أرائهم ،وأن يقدموا إضافة جديدة إلى تراثنا و شعرنا خاصة ،وإن كان ظاهرهم أ وضح من باطنهم ولكن لا يمكننا أن نعمم هذا على كل المستشرقين لأن منهم خدم اللغة العربية والحرف العربي وقدم خدمات جليلة لهذه اللغة .

"و يبدو أن المستشرقين لم يعد لديهم شك قوي في ذلك على الرغم من أن الحكم على أهمية الأخبار الواردة في المصادر العربية و قيمتها كثيرا ما كان ذاتيا محض وغير منهجي،يبين هذا الشك بصفة خاصة عند النظر في الإشارات البيوجرافية إلى المصادر المبكرة" [7] و هذا المنهج في اعتقادهم هو الذين قادهم إلي إيجاد تفسير لهذه النصوص الجاهلية و إتباع الطريقة المثلى في ت نقيحها و تمحيصها لأنهم يؤكدون أن النص يقبل تفسيرات مختلفة ومتنوعة ويجيب أن نقرء هذه النصوص قراءات متعددة ومختلفة، لأن النظريات القرائية لا تعدو أ ن تكون إشارات توجيهيه للتعامل مع النص المدروس والقراءة

الأولى للنص في نظرهم غالبا تتفق مع الأنواع الإشاراتية التي يمكن أن يتكأ عليها النص "وستضاءل دهشتنا عن هذه الحقيقة حين نجد حتى في هذا الزمن الذي نهت هذه الكتابة نموا كاملا وكثر النسج ، بمعنى لشك يحيط بنسبة كثير من القصائد" [8] ومن هذا المنطلق أصبح المستشرقون يلعبون دورا فعالا في دراستهم لشعرنا الجاهلي و يحاولون بشتى الطرق الكشف عن خبايا هذه النصوص ،وهذا ضمن قراءات مختلفة و متعددة وهذه القراءات قادتهم إلى افتراضات ونتائج تتلاءم مع طبيعتهم التي تلتزم بمنهجية الشك،وعلى الرغم من هذه الحجج الذين أدلى بها المستشرقون وهذه الرؤية التي اتخذوها في دراستهم إلا أنهم ظلوا يتعاملون مع النص الشعري بشكل جزئي.

والنظر إليه على أنه وحدة متعاملة مع التأكيد على معرفة اللغة بصفة خاصة وعميقة حتى يتمكنوا من الحكم على هذا التراث العربي .

"صحيح أننا لا نستطيع أن نوغل في الحكم الدقيق على هذه القصائد إلى الحد الذي أدى بطبيعة النقاد العرب ،بل سيكون حاليا أقل ما يستطيعه فرنسي أو إنجليزي من الحكم الصادق على الشعر الألماني مثلا ،لأن ذلك يحتاج إلى معرفة بدقائق اللغة العربية والاستعمال الشعري ،ولا يستطيع اكتسابها أي أجنبي "[9]

أضف إلى ذلك أن مشكلات كثيرة ج دّت في ميدان دراسة المستشرقين لأدب نا العربي وخاصة الشعر منه ، فهناك أسئلة جديدة مطروحة حاول المستشرقون الإجابة عنها و خاصة فيهما تعلق بالرواية الشفهية ،فقد ذهبوا إلا أنه لا يمكن بأن تحفظ الإشعار مدة زمنية تزيد عن مئة و خمسين عاما،فهذه الرواية بطبيعته الحال ستتأثر بعامل الزمن ،وهذا ما يجب أن نجعله في الحسبان ،فالمسافة الزمنية لا بد تأخذ بعين الاعتبار والتي تقترب من مئة و خمسين سنة كافية أن تتغير فيها بعض الأبيات و تتلاشى بفعل الزمن والنسيان وهذه العوامل كافية أن تغير مفهوم الشعر الجاهلي تغيرا جذريا و في نظرهم أن الباحث المنصف لا يمكنه أن يسقط في حسبانه عامل الزمن و الذي يلعب دورا رئيسيا في الكشف عن عامل النسيان .

" إذا أراد المرء أن يسترد النص الأصلي الحقيقي أن يستخرج من الروايات المختلفة لنفس الشاعر سيقع في هوى بالغ ،ولن يأتي بشيء مقبول لدى الفيلولوجي ذي الضمير المرهف ومن العسير بفرز واحدة فرزا حادا حتى لوصل المرء إلى هذا أو إلى قريب منه ،فإنه ينبغي عليه لا يتوهم أنه أصبح أمام النص الأصلي للقصيدة كما أنشدت مثلا في سوق عكاظ أو في قصر الحيرة لأول مرة "[10]

وهكذا أكد نولدكه أنه لا يمكننا أن نجمع أننا أمام نص أصلي لهذا الشعر والذي يدخل عندهم في إطار اللامعقول في تراثنا العربي ،وأجهدوا أنفسهم في البحث عن هذه الأمور و أصبحوا يواجهون في هذا الإطار و هذا التشابه الموجودة في أسماء كثير من الشعراء والخلط في نظم قصائد "كثيرا ما أخص تشابه الأسماء إلى عدم اليقين في تحدي ما هو الشاعر الذي ألف القصيدة إذ يوجد كثير من الشعراء أسماؤهم إمرؤ القيس فمن الممكن أن عدد غير قليل من قصائدهم قد نسب إلى أشهرهما و قد وردت إلينا أخبار صريحة في هذا الصدد ،كذلك حدث نفس الشيء مع زهير و النابغة بل ربما بعض القصائد قد نسبت إليهما إنما هي م ن صنيع أنباء عمومتهما "[11] ونجد أن (ألفرد فلهم) يؤكد أنه يمكن أن ننسب بعض القصائد لغير قائلهم ،وهذا نظرا لاختلاف المعاني و تشابها في الأسلوب الشامل . والفروق الموجودة بينهما "ليس من النادر أن ننسب قصيدة إلى شاعر مشهور لأنها تتناسب أخبار شاعت عنه ،أخباراً ربما كانت خرافية لكنها ،فمثلا أعتقد أن الشن فوي كان جسورا فاتكا صعلوكا و قاطع طريق،معتمدا بحيوته فيما تناقله ألسنة العامة ،لكن يعرف عنه شتى محددة فكان من الممكن وضع قصائد على لسانه تتفق مع أحواله حياته و شخصيته "[12]